

عبرة السيرة

بين برى « العدد الممتاز » من الرسالة
للاستاذ على الطنطاوى

—»»»»»—

إن مائة ألف قاريء في مشارق الأرض ومزاربها، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحجي في نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التي تقف عندها في كل رأس عام هجرى، كما يقف المصنّح في واحة نخضرة ظليلة... ننشق منها عبير الجند، ونسمع أغاريد النصر، ونجتلى في طلعها طيف الأيام الباسمة التي كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حلت غارها الراية الإسلامية، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت نفارها وجنت ثمارها البلاد الإسلامية، وكان من حصاها هذه الحضارة التي نعمت في أقيانها الإنسانية، وكانت إحدى الحضارات العالمية الثلاث بل كانت أمها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق!

تقف كل عام لنحجي ذكرى الهجرة ونحييها، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونأمل، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جوار عال من العظمة والفضيلة والشرف، نبقى فيه مابق المحرم، فإذا مرر معه كل شيء: صوّخت الآمال، وهجعت الكريات، وعدنا نتخبط في سواد اللجة... لا نرجح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه في الصحف والمجلات من القصص والقصائد والقصائد. وكثير مما يكتب في العدد الممتاز، وبعض مما ينشر في الصحف والمجلات، قيم ثمين، نفتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الثنية الحافلة بشمرات القرائح الخصبية المرعة في الأعصار الطويلة، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا في نهضتنا إذا نحن لم نحى هذه الذكرى إحياء، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود، ونأخذ منها عبرة تنفعنا في نهضتنا، وهذا ما أنشئ له العدد الممتاز، وهذا ما يراد من إصداره.

وباقى حريم السلطان، حملن إليه مكرمات ممزقات. ولما دعى السلطان إلى الحلقة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر؛ وضع تيمور التاج على رأسه، ووعدته برد عرشه وملكه، ولكن السلطان الأسير ما لبث أن توفي، فخن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم في المدفن الذي أقامه لنفسه في بروصه، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول.

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه، فهي على ما يلوح رواية قاصرة أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه. ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيون أن يوفق بين الروايتين، فيقول لنا إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لأرب فيها، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة، فاستاء تيمور واعتزم أن يعود أسيره في ركب الظافر إلى سمرقند؛ ولكن محاولة بذلك لا تقاها الملك الأسير حملت تيمور على التشدد في معاملته، فزج به إلى قفص من الحديد، اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع في قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد^(١). ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة، فدعا ذات يوم إلى حفل أنس عقده؛ ولما جاء دور الشراب، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن؛ وقد كان ذلك من تيمور مبالغة في الانتقام من خصمه والتشنج منه لما اجتراً عليه من ذكر النساء في مكاتبته^(٢). وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير، فلم يمس على محنته بضعة أشهر حتى توفي في شمر الحسرات والأسى، وكانت وفاته في مارس سنة ١٤٠٣ م.

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته؛ فلم يمس قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفي في شهر فبراير ١٤٠٥؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذي شاده بعقريته وظفره وسعد طالعه.

محمد عبد الله عناده

(١) جيون: Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والتون

(٢) ابن عربشاه ص ١٣٣

وفي هذه السيرة من القوة والسمو والحياة، ما يغذي عشرين نهضة ويعددها بالقوة، لا تدانيها في هذا سيرة في التاريخ ولا تشبهها، بل إن هذه السيرة أعجوبة التاريخ ومعجزته، وهي خيال بالغ الدنيا في ترتيبه وتزيينه، وأودعته مثلها العليا كلها. فجعله الله حقيقة واقعة...

ولقد قرأت هذه السيرة مرات الله أعلم بمددها، في كتب لا أكاد أحصياها، ثم عدت اليوم أقرأها لأجد في ثني من ثناياها قصة مطوية أو حادثة مختبئة، أبي عليها فصلاً أكتبه للمسدد الممتاز، وفي ظني أني لن أسير في قراءتها إلا قليلاً حتى أملهأ وأعزف عنها لأنني لا أجد فيها - وقد قرأتها حتى حفظتها - خبراً جديداً... وأقسم أني لم أسر فيها غير بعيد حتى أحسست بلذة فنية تمتلك عليّ أمرى، وتستأثر بنفسى، كاللذة التي أمتها عند ما أقرأ الأثر الأدبي البارع لأول مرة، وتغلبني حتى تضطرنني أحياناً إلى قطع القراءة لأمسك بقلبي الواجب، أو أمسح عيني المستعبرة، أو أسنى إلى صوت الحق في ضميري، ومناادي الفضيلة في قلبي؛ ثم أسير فيها، فأنتقل من اللذة الفنية، والشعور بالجمال، إلى شيء أعلى من الفن وأسمى من الجمال: أحس بحلاوة الإيمان؛ وإن للإيمان حلاوة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، فمن عرف درى ما أقول، ومن جهل لم ير إلا حروفاً فارغة من المعنى... وإذا جاء الإيمان جاءت معه البطولة بأروع أشكالها، والتضحية بأعجب أنواعها، وجاء معه الصبر والإيثار والقوة والشعور، وكل فضيلة من فضائل البشر... وكذلك كانت حياة أصحاب هذه السيرة!

كانت حياة أسمى وأجل من كل حياة عرفتها أو قرأت عنها أو تخيلتها: معرفة للنفاية التي خلق الله الناس من أجلها، وجهاد في سبيل هذه النفاية، وجري على هذا الجهاد، وترفع عن خدع الحياة والأعْيها، واتصال بالله بكاد والله يرفعهم من رتبة الإنسانية إلى رتبة الملائكة ويخرج بهم من ثوب الجسم المادي، حتى يكونوا أرواحاً خالصاً...

عرفوا ما هي النفاية من الحياة وفهموها، على حين جهل الناس هذه النفاية فهم يسألون أبدأ: لماذا نعيش؟ أو خدعوا عنها ببايات دينية قريية... أما هؤلاء الغريون فحسبوا النفاية من الحياة

هي الحياة. جعلوا السبب هو السبب، والوسيلة هي الغاية، فعمدوا إلى ترفيه الحياة، واستخدموا لأجل ذلك ما قدروا عليه، فصارت حضارتهم آلية جامدة، وصاروا لطول ما اشتغلوا بالحديد والنحاس يفكرون بمقول من حديد ونحاس، وانقطعت صلتهم بالروح وانتشوا مما وراء المادة... وأما هؤلاء المشرقون، من الهنود وأمثالهم، فساروا على الضد، وأهلوا الجسم وعاشوا للروح، فظنوا بأن غاية الحياة الفناء في الطمع الروحي، فقتلوا أجسامهم، وأعرضوا عن دنياهم، وأغرقوا أعمارهم في تأمل لا أول له ولا آخر، ولا جدامنه ولا منفعة.. أما الفلاسفة فكان منهم الماديون الذين بلغ من رقاعتهم أن أنكروا الروح إنكاراً وجحدوا الله، وقال متكلمهم: (إن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء...) فجعل الفكر مادة سائلة... ومنهم الروحيون الذين كانوا أصح نظراً، وأدنى إلى الحق، ولكنهم لم يصلوا إليه... تساءلوا منذ بدؤوا يفكرون: لماذا نعيش؟ ولا يزالون مختلفين يتساءلون هذا السؤال الذي عرف المسلمون وحدهم جوابه، حين قرأوا قول الله الذي أنزله على عبده ورسوله:

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

استدل المسلمون بالخلق على الخالق، وأرشدهم الله إلى عظمة هذا الكون (المكوّن) فعرفوا منها ما لم يعرفه أصحاب الفلك من العلماء الماديين، غاية ما يعرف هؤلاء أن بيننا وبين الشمس كذا، وأنها أكبر من أرضنا هذه بكذا، ثم إن من هذه الكواكب كواكب لو أقيمت الشمس فيها لكانت رملة في صحرائها، أو نقطة من مائها، وما بين مشرق كوكب منها ومغربها أضعاف أضعاف ما بين الشمس والأرض، وغاب عنهم ما بعد من الكواكب، ووقفت دون رؤيته نظاراتهم ومكبراتهم، وعجزت عن الإحاطة به عقولهم وتصوراتهم، فسموه (فضاء غير متناه)، كما يظن الطفل أن البحر لا ينتهي وليس له آخر... وهل شيء ليس له آخر، إلا من هو الأول والآخر؟ أما المسلمون فعرفوا أن وراء هذا الفضاء مخلوقاً عظيماً، يحيط به (كالسقف المرفوع) لا تقاس به هذه الكواكب إلا قياس (المصاييح) إلى السقف، تهون عنده هذه الكواكب العظيمة وتضول، لأن له من الكبر والجلال ما لا نجد في لفتنا هذه التي وضعت لهذه

عنه ، ولم يتكالبوا على الدنيا ؛ وجدوا كل الجسد ، ولكنهم لم يطلبوا شيئاً إلا من طريقه المشروع ، وعملوا لدينام كآتهم يحيون أبداً ، ولكنهم عملوا لآخرتهم كآتهم يموتون ، غداً

عرفوا هذه العقيدة على وجهها ، فكانوا أعز الناس على الناس ، ولكنهم كانوا أذلهم لله وللمؤمنين ؛ وكان منهم أزهدهم الناس وهو أغناهم ، لأن المال كان في يده لا في قلبه ؛ وكان منهم الملك الزاهد ، والعالم الغني ، والفقير العزيز ... وما شئت من خصلة من خصال الخير إلا وجدتها فيهم

كانوا إذا قرأوا في الصلاة قوله تعالى : « إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » كانوا صادقين ، لا يبدون إلا الله ، ولا يستعينون إلا به ؛ لا يسألون غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله ، ولا يستعينون بالأموات الذين يجزوا عن ممونة أنفسهم . ولقد قرأت السيرة وتلوت القرآن ، فلم أجد في القرآن إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر ، في تركيب جسمه ، وحيته ومريضه وطبيعة فكره ، وخطئه وصوابه ، ولكن الله اختاره للرسالة الكبرى ، فعممه من كل ما يدخل الخطأ على الرسالة ، أو يؤدي إليه ، أو يشين الرسول ، فكان صادقاً مصداقاً ، لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول (إذا بلغ عن ربه) إلا الحق ، ولا يشرع من الدين إلا ما أذن به الله . وكان منزهاً عن التذنب والمعائب التي لا يليق بصاحب الرسالة أن يتصف بها ، فإذا جاوز الأمر تبليغ الرسالة وما يتصل بالدين إلى أمور الدنيا فهو بشر يخطئ ويصيب ، وإن كان من أكثر الناس صواباً ، وأقلهم غلطاً لأنه كان أكمل الناس عقلاً وأفقههم بصيرة ؛ وما دام بشراً فإنه يموت إذا جاء أجله . وإنه الآن ميت ليس حياً في قبره كما يظن الجهلة من العوام وأشباه العوام ، ويعتقون الناس أن يقولوا إنه ميت ، وقد قال الله ذلك في كتابه ، وقاله أبو بكر صاحب الرسول وصديقه على منبر الرسول في مسجده ، بحضرة أصحابه وعترته . أما الذي قاله عمر ساعة من نهار فأنما كان مصدره الألم المفاجئ ، والحب الطائفي على الفكر ، فلما سمع من أبي بكر ما سمع ، لم تحمله رجلاه فسقط ... قرأت السيرة من ألفها إلى يائها ، فلم أجد أحداً من المسلمين دعا الرسول أو لجأ إليه إذا حاق به الخطب الذي لا يقدر

الأرض الحقيمة كلمة تدل عليه ؛ هذا المخلوق هو السماء الدنيا ، ومن فوقها ست سموات أخرى طباق بعضها فوق بعض ، ومن فوقها أشياء أجل وأكبر ، لا تكاد هذه السموات تعد إذا قيست بها شيئاً ، هي العرش والكرسي ، وهناك الجنة ، عرضها السموات كلها والأرض ... هذه هي المخلوقات ، التي كانت بكاف ونون ، فما ظنك بالكون الباقي ؟ ومن عرف هذا الجلال للمخلوق ، كيف يكون إجلاله للخالق ؟ وهل يجد لحياته غاية إلا الاتصال به وعبادته ؟ وهل يقف به عقله وحمته في هذه الأرض ؟ ... أي شيء هي الأرض في هذا الكون ؟ ما هي في جنب الله ؟

فهموا عقيدة القضاء والقدر أصح فهم وأجوده - وعقيدة القدر محنة العقل البشري ، تزل فيها العقول الكبيرة وتضل المبارك العالية - فكان فهمهم إياها أعون شيء لهم على ما وفقوا إليه من عمل ، وأمضى سلاح بلغوا به ما بلغوا من ظفر . علموا أن كل شيء يخلق الله ويعلمه ، ولكن الله لم يضطر أحداً إلى الخير اضطراراً ، ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ، ودله على الطريقين المختلفين ، وقال له : هذا إلى الجنة والسعادة ، وهذا إلى النار والمذاب ، وتركه وعقله ... وأنه قدر الأرزاق فلا زيادة ولا نقصان ، وحدد الآجال فلا تقديم ولا تأخير ، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ؛ وإذا جاء أجلك فلا تستأخر لحظة ولا تستقدم . رفعت الأقلام وجففت الصحف ... ففضوا لايهايون الموت في سبيل الله ولا يخافونه ، لأنهم آمنوا إيماناً بأن المرء ليس أدنى إلى الموت ، وهو في غمار الحركة الجراء منه وهو في كسريته بين أهله وولده ... ولكن المسلمين الأولين لم يلقوا بأيديهم إلى الهلكة اعتماداً على أن الأجل محدود ، ولم يمرضوا عن سنن الحياة التي لا تجد لها تبديلاً ، بل اتبعوا قوانين الوجود ، وساروا على نهج الحق ، وحرصوا على الحياة حين يكون الواجب داعياً إلى الحياة ، ورضوا بالموت حين يدعوهم الواجب إلى الموت ... ولم يعرفوا هذا التوكل السخيف ، فناموا ويتقاعسوا عن العمل ، لأنهم علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض . وقرأوا في القرآن قول الله الذي أنزله على عبده ورسوله : « فإذا عزمت فتوكل على الله » فعمزوا على العمل ، وتوكلوا فلم يتكاسلوا

البشر على دفعه ، وإنما كانوا يلجؤون إلى الله ويدعونه ، لا يقولون مقالة البوصيري :

يا أكرم الرسل ، مالي من ألوذ به

سوالك... عند حلول الحادث العمم !

ولا قول الآخر مخاطب عبد الله ورسوله بهذا الخطاب الذي لا يخاطب به مؤمن إلا الله وحده :

يا أكرم الرسل على ربه

عجل بإذهاب الذي أشتكى فان تأخرت فن أسأل ؟ لا يدري من يسأل إذا تأخر رسول الله بإذهاب الذي يشتكى ؟ وهو يقرأ كل يوم سبعة عشرة مرة (على أقل تقدير) : « إِيَّاكَ نَمِيدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ؟ ! ولم أجد صحابياً لجأ إلى الرسول بعد موته يستشير في أمر ، أو يراه في منام فينبئ على رؤياه حكماً ويأخذ منها علماً . ولقد اختلفوا على الخلافة والنبي صلى الله عليه وسلم في بيته لم يدفن ، فما فكروا أن يلجؤوا إليه وأن يستشيروه ، وهل يستشار الميت ؟

صدقوا بإمكان المعجزات والكرامات (وهي ممكنة والإيمان بإمكانها من أصول الدين) ولكنهم لم يكونوا يفهمونها على نحو ما نفهمها اليوم ، ولم أجد للصحابة — وهم أفضل المسلمين — مثل هذه الكرامات التي تقرأ حديثها ونسمعه كل يوم ... ووجدت كتب السيرة كلما تأخر بها الزمن ، زادت فيها أحداث المعجزات حتى بلغت هذه الموالد العامية (مولد البرزنجي وشبهه) التي جاء فيها ما نصه : « ونظقت بحمله صلى الله عليه وسلم كل دابة لقريش بفصيح الألسن القرشية ! » ... « وتباشرت به وحوش المشارق والمغارب » ... « وحضرت أمه ليلة مولده آسية ومريم في نسوة من الخطيرة القدسية ... ! »

وقرأت السيرة كلها ، ودققت في كل سطر منها فاشمت رائحة اختلاف بين المسلمين ، لا في العقيدة ولا في المذهب ولا في الطريقة ، وإنما المسلمون كلهم إخوة في أسرة واحدة ، عقيدتهم واحدة ، عقيدة بلغت من الوضوح واليسر و (البساطة) إلى حيث لا تدع مجالاً لاختلاف . وهل يختلف في أن الواحد

يساوي الواحد ؟ هذه هي عقيدتنا ... ولكن التكلمين أدخلوا فيها مسائل ليست من العقيدة في شيء ، وملأوها كتبهم التي عقدوا فيها هذه العقيدة حين حشوها بحكاية كل مذهب مخالف والرد عليه . وجئنا نحن نزيد البلاء بلاء حين نحفظ الطلاب هذه المذاهب والرد عليها وقد انقرض أصحابها منذ دهور ...

أما هذه (الطرق) فليست في أصل ولا فرع ، ولا تكاد تمتشى مع المأثور من الله كرم ، وإن أكثرها مسخرة وهو ولب : رقص سمويه ذكراً ، وغناء دعوه عبادة ؟ فما أدري أم أنبياء بعد محمد ؟ (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟ وإلا فما بال هذه المحرمات وهذه الدمدمات ، وهذه الطامات المخزية التي نشهدها في تكية الدراويش المولوية وأشباهها من دور أصحاب الطرق أو ... قطاعها !

ولقد قرأت السيرة كلها وأجهدت نفسي لأجد شيئاً من الأشياء ، أو مكاناً من الأمكنة قدسه المسلمون وتبركوا به ، فلم أجد إلا ما كان من تقبيل الحجر الأسود أو استلامه . وقول عمر : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك » ... وتحت أن أرى في السيرة ذكر الحمل الذي صار في مصر من شعائر الحج ، يتبرك عطاء مصر بلس عنان جلّه ، ويعرض ذلك في (أفلام السينما) على أنه من أركان الحج . وأجد في السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان — وهو يعاني آلام مرض الموت — ينهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فأعجب من حال المسلمين اليوم إذ لا أرى مسجداً كبيراً إلا بني على قبر أو كان فيه قبر ...

هذا قليل من كثير عرضته مثلاً لما في السيرة من عبرة تنفعنا في نهضتنا ، ودرس يفيدنا في حاضرنا . فكرت قبل عرضه وترددت ، ثم آثرت إرضاء الحق ومصالحة الأمة ، ففتحت هذا الباب لتدخل إلى هذه السيرة المظلمة فلا تخرج منها إلا بالحياة والعزم والمجد ، والمزايا التي تعيد للأمة الإسلامية مكانتها في الدنيا !

على الظنطاري

(بيروت)